أد.خالد بلعربي

أعمال الملتقى الوطني حول التصوف و المتصوفة في الغرب الإسلامي

التصوف و المتصوفة في الغرب الاسلامي -الواقع و النتائج

NOOR PUBLISHING

أعمال الملتقى الوطني حول التصوف و المتصوفة في الغرب الإسلامي

يهدف هذا الكتاب لدراسة حركة التصوف في الغرب الإسلامي على امتداد فتراته الوسيطة والحديثة و التي كان لها وقع وتأثير خاص على مجتمعات الغرب الإسلامي خلال هذه الفترة خاصة بعد دخول المصنفات الصوفية عن طريق الرحلات العلمية والتجارية إلى المشرق الإسلامي إضافة إلى الحج، فتأثرت بذلك بلاد الغرب الإسلامي بهذا الرافد المشرقي وخلقت تجربة صوفية متعددة المشارب والاتجاهات وتمكنت من التأثير في شرائح عديدة من المجتمع بل كانت قوام فلسفات ودعوات سياسية، كما أنتجت هذه الظاهرة ممارسات ومفاهيم اجتماعية لازال البعض منها يلقى بظلاله في الزمن الراهن، ويجرنا الحديث عن الظاهرة الصوفية إلى تسليط الضوء على المتصوفة باعتبارهم مشعل هذه الظاهرة، ولابروز المطلع على تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط والحديث اكتشاف كبار المتصوفة الذين كان لهم باع طويل وتأثير واضح المعالم على عصرهم وما بعده، على غرار أبي مدين شعيب وأبي يعزى وأبو العباس السبتي وعبد الرحمن الأخضري وعبد الكريم الفكون .

أد.خالد بلعربي. حاصل على شهادة الليسانس في التاريخ من معهد التاريخ -جامعة وهران-سنة 1991. خاقش أطروحة الماجستير بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية-جامعة تلمسان سنة 2000.-. حاز على شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط من جامعة سيدي بلعباس سنة 2004. عمل أستاذا مساعدا ثم أستاذا مساعدا مكلفا بالدروس وأستاذا محاضرا منذ تعيينه بجامعة سيدي بلعباس سنة2001

NOOR PUBLISHING

978-620-2-35366-3

الإنتاج الفكري الصوفي الفلسفي خلال العهد المرابطي، خلع النعلين لإبن قمي نموذجا

أ.د.خالد بلعربي، أستاذ تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط
-جامعة سيدي بلعباس-
أ.ناصري محمد،-دكتورالي بجامعة سيدي بلعباس-
تحت إشراف،أ.د.خالد بلعربي.
مختبر الجزائر والحوض الغربي للبحر المتوسط.

Abstract.

This study attempts to identify the characteristics of intellectual production of Sufi philosophy in Andalusia during the Almoravid era. We have chosen the book of "khal3 el na3lain" To his author ibn ke3yy, as the author was one of the most important Sufi figures in the late Almoravid era.

الملخص، تحاول هذه الدراسة التعرف على ملامح الإنتاج الفكري الصوفي الفلسفي بالأندلس خلال العهد المرابطي، وقد اخترنا كتاب خلع النعلين لابن قمي نموذجا كون صاحبه كان من أهم الشخصيات الصوفية في أواخر العهد المرابطي باعتباره قام بثورة ضد السلطة المرابطية، انتهت بقتله سنة 546هـ.

مقدمة،

عرفت بلاد الغرب الإسلامي انتقال الظاهرة الصوفية إليها من بلاد المشرق الإسلامي على مراحل زمنية متلاحقة، بداية بالقرن الثالث الهجري، ليعرف ذروته في العهد المرابطي والموحدي خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، على أن هذا الانتقال كان نتيجة عوامل عديدة لعل أبرزها الرحلات العلمية والتجارية إلى المشرق الإسلامي وكذا رحلات الحج، كل هذه العوامل أدّت إلى احتكاك وتلاقح ثقافي أدى إلى دخول المصنفات الصوفية كقوت القلوب لمحمد بن علي المكي وطبقات الصوفية للسلمي، وعرف العهد المرابطي نشاطا صوفيا كبيرا سواء من حيث الممارسات أو من حيث الإنتاج الفكري، فالغرب الإسلامي لم يكتف بتلقي الأفكار والمصنفات بل كانت له مساهمات عديدة في تدعيم بيبليوغرافيا التصوف، منها ماهو في عداد المفقود ومنها ماهو متوفر، ونذكر منها كتاب خلع النعلين لابن قمي، وهو ماسنحاول التعريف به في مداخلتنا هذه والموسومة بـ"الإنتاج الصوفي الأندلسي خلال العهد المرابطي:خلع النعلين لابن قمي نموذجا".

ترجمة ابن قمي

يجدر بنا أولا إلقاء نظرة خاطفة على المصادر التي عنت بالحديث عن ابن قمي وثورته والتي نجدها من حيث الكم جد قليلة. فابن الأبار خصص له ثلاث صفحات وكذلك ابن الخطيب. أما عبد الواحد المراكشي فلم يكلف نفسه عناء الحديث عنه إلا عرضا في سطور. وهذا الإجحاف المصدري هو الإشكالية الرئيسية والمطبة الأولى التي تواجه الباحث في الترجمة لابن قمي، على أن تبرير هذا الإجحاف متعلق بالمتوفر من المصادر، ذلك أن المفقود منها قد تحدث بإسهاب عنه ولعل أبرزها "ثورة المريدين" لابن صاحب الصلاة و"الاقتضاب في ثورة المريدين" لأحمد بن عميرة المخزومي[1].

والمطلع على ماكتبت هذه المصادر يجد أنها تناولت ابن قمي بنوع من التحامل. فإذا كان عبد الواحد المراكشي يرى في الحديث عن ثورة المريدين نكرة ووصف ابن قمي بداعية فتنة ورأس ضلالة وصاحب حيل وشعبذة[2] وأخباره قبيحة وكلها تجرؤ على الله[3]،فذلك مرده للانتماء السياسي للكاتب المعروف بولائه للموحدين. وبما أن ابن قمي ثار على الموحدين أيضا فمن الطبيعي أن يصنفه في خانة المعارضين وينعته بأبشع الأوصاف دون تحري وروية. فما هو السبب الذي حذا بابن الأبار إلى تكذيب زهد ابن قمي معلقا عليه بعبارة "بزعمه"[4] وهو الذي عاش في القرن السابع، أي متأخر عن المرابطين والموحدين، فما فائدته في التحامل على ابن قمي؟ هل يرجع ذلك إلى إمكانية نقله من كتاب ثورة المريدين المفقود لابن صاحب الصلاة؟ خصوصا وأن هذا الأخير ولاؤه موحدي فمن المؤكد أنه تحامل على ابن قمي.

---

[1] ابن الخطيب،الإحاطة في أخبار غرناطة،ج1،تحقيق محمد عبد الله عنان،مكتبة الخانجي،القاهرة،1973،ط2،ص178.

[2] عبد الواحد المراكشي،المعجب في تلخيص أخبار المغرب،شرحه وامتى به صلاح الدين الهواري،المكتبة العصرية،بيروت،2006،ص155.

[3] نفسه،ص156.

[4] ابن الأبار،الحلة السيراء،ج2،تحقيق حسين مؤنس، تحقيق وتعليق حسين مؤنس،دار المعارف،القاهرة،1985،ط2،ص197.

ونفس الملاحظة نسجلها عند ابن الخطيب الذي وصف أتباع ابن قمي بـ"دائرة السوء"[1] و"الأشرار"[2] فهل يمكن اعتبار ذلك اتجاه عام في الكتابة التاريخية يقضي بتصنيف حركات المعارضة والخروج عن السلطة في خانة المغضوب عليهم؟

يرجع ابن قمي من أصل رومي من بادية شِلْب[3]. أما سنة ولادته ونشأته فذلك ما لا نعلم عنه شيئا نظرا لشح المصادر في تسليط الضوء على حياته قبل تصوفه، وقد اشتغل موظفا حكوميا في دولة المرابطين ولاتملك معلومات حول هذه الوظيفة لكن لنا أن نستفسر عن صلته بالمرابطين، فهل كان مقربا من السلطة المرابطية؟ أو بالأحرى هل كان مقربا من الفقهاء؟ أم أنه كان هو أيضا فقيه؟

وتصوف ابن قمي قبل أن يكون في إطار مجتمعي عام متميز بما سماه الدكتور ابراهيم القادري بوتشيش بالأزمة وذلك بفعل شلل تام في شرايين الدولة المرابطية وتراجع الأداء العسكري للمرابطين وهم الذين كانوا يعتمدونه كمصدر دخل أساسي، فتراجعه أدى إلى استنزاف المجتمع وفرض الضرائب عليه فشكل ذلك ضغطا رهيبا على المجتمع الذي لم يجد متنفسا له سوى في الأولياء والمتصوفة[4]. فما موقع هذه الظروف من تصوف ابن قمي؟

يخبرنا ابن الأبار أن ابن قمي تزهد وباع أملاكه وتصدق بثمنها، فهل هذا التصرف تعبير منه عن الأزمة الاقتصادية الخانقة التي عانى منها المجتمع المرابطي؟ أم أنه تكفير منه باعتباره موظف لدى الدولة المرابطية ومشارك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في السياسة المالية المجحفة التي فرضها السلطة المرابطية على مجتمع الغرب الإسلامي؟

---

[1] ابن الخطيب، نفسه، ص225.

[2] نفسه، ص227.

[3] ابن الأبار، نفسه، ص197.

[4] إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين-المجتمع-الذهنيات-الأولياء، دار الطليعة، بيروت، ط1993،1، صص125-128.

بداية نسلم أن ابن قمي سخط على السلطة المرابطية وزهده وتخليه عن أملاكه وإعلانه الثورة على المرابطين ينبع من إيمانه بقضية لاتدري أكانت بذور مشروع سياسي أم حركة معارضة عشوائية، وعليه فتكوين ابن قمي في التصوف لم يكن منذ نشأته وإنما كان وليد ظروف تحدثنا عنها آنفا.

وكطالب في بداية الطريق كان عليه أن يتتلمذ على متصوفة ليعمق معارفه في التصوف،حيث كان ابن العريف أشهر متصوفة الأندلس آنذاك، ويقول ابن الأبار أنه التقى بابن العريف لكن بالاطلاع على كتاب هذا الأخير المعنون بـ"مفتاح السعادة" نجد أنه كان يتواصل مع ابن قمي عن طريق المراسلة، حيث كان ذلك سنة 529هـ/1135م وتحيلنا إحدى الرسائل أن ابن العريف لم يكن يعرف ابن قمي قبل هذه السنة حيث يقول فيها "ذكر لي أبو محمد متحملة- أكرمه الله- أنك تعرفني باسمي، فشغلني فراغي عن معناك، وأن أتعرف منه كيف وصل مثلي إلى هناك"[1] وهو مايعني أن التقاؤهما كان بعد هذه السنة.

ويبدو أنه نصحه بمطالعة مجموعة من كتب التصوف ككتب أبي حامد الغزالي[2] على غرار إحياء علوم الدين ورسائل إخوان الصفا[3]، على أنه تنبغي الإشارة أن توجه ابن قمي إلى التصوف تصحبه عدة خصوصيات في شخصيته فهو كبير السن وقضى شبابه في النعيم إضافة إلى أنه كان في السلطة المرابطية، وبالتالي فاستنتاج أحد الباحثين أن تعامل ابن العريف معه سيكون تعامل الصديق وليس الشيخ مع المريد صائب إلى حد بعيد[4] وقد حدث بذلك تحول جذري في شخصية ابن قمي، ولعل من أبرز مميزات هذا التغير نزوعه إلى منهج تأويل النصوص واستكشاف رموزها[5].

ثورة ابن قمي:

---

[1] أبو العباس بن العريف،مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة،دراسة وتحقيق مصمت عبد اللطيف دندش،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1993،ص208.

[2] ابن الأبار،المصدر السابق،ص197.

[3] ابن الخطيب،المصدر السابق،ص225.

[4] عبد السلام الغرميني،المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري،دار الرشاد الحديثة،المغرب،2000،ص207.

[5] نفسه،ص207.

تعددت مشارب ومواقف مريدي الأندلس من السلطة المرابطية في أواخر عهودها،فبين داع للتغيير بطريقة سلمية وبين داع للتغيير بالعنف، وعليه فقد انقسمت الخريطة الأندلسية بين هذه الآراء إلى مايلي:

الإتجاه الأول في شرق الأندلس وقاعدته بمدينة ألمرية، وقد تزعم هذا الإتجاه ابن العريف الذي نحى منحى المعارضة السلمية الإصلاحية للسلطة المرابطية[1]. حيث يقول "ومن رأى منكرا ظاهرا بينا فعليه بخاصة نفسه، فإن المشغول بعين الفريضة من حال نفسه وإن كان عالما أو حاكما لايجب عليه ذلك، فكيف بمن ليس بعالم ولاحاكم ولا صديق ولا رفيق؟ إذا فما يتعين تغيير المنكر على الحاكم بالشرط ومافي معناه، وعلى العلماء بالنصيحة والتبيين، وعلى الأصدقاء بالرفق والنصيحة، وإلا صارت فضيحة[2].

الإتجاه الثاني في اشبيلية بزعامة ابن برجان الذي بالرغم من أنه لم يصارح بالثورة ضد المرابطين، إلا أن إكرام ابن العريف من طرف علي بن يوسف وقتل هذا الأخير لابن برجان بعد اتهامه بالهرطقة يوحي أن توجهه السياسي مخالف لتوجه ابن العريف[3].

الإتجاه الثالث بغرب الأندلس وقاعدته بشلب ثم قلعة مرتلة بزعامة أحمد بن قسي الذي أعلن الثورة ضد المرابطين[4].

بعد وفاة ابن العريف وابن برجان أصبحت الساحة الصوفية الأندلسية شاغرة من تيارين، ولم يبقى في الساحة سوى ابن قسي الذي تصدر المشهد الصوفي في الأندلس، وابتنى رباطا بقرية جلة من أعمال شلب وبدأ دعوته وتبنى مذهب الغزالي الذي حاربه المرابطون في الغرب الإسلامي بتتبع مؤلفاته وإحراقها خاصة كتاب إحياء علوم الدين[5] كما "كثرت مخاريفه واشهر عنه أنه حج من

---

[1] إبراهيم القادري بوتشيش،المرجع السابق،ص132.

[2] أبو العباس بن العريف،المصدر السابق،صص 169-170.

[3] ابن قسي،خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين، دراسة وتحقيق محمد الأمراني،مطبعة ihmb، أسفي،1997،قسم الدراسة ص60.

[4] إبراهيم القادري بوتشيش،نفسه،ص133.

[5] عصمت عبد اللطيف دندش،الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين،دار الغرب الإسلامي، بيروت،1988،ص70.

ليلته ويناجي بما يشاء وينفق من الكون"[1]. وعكف على قراءة كتب أبي حامد الغزالي ويدعو للفتنة[2] وقد تمكن من استقطاب عدة شخصيات ذات وزن على غرار ابن وزير وابن عنان فارس ومحمد بن المنذر ومحمد بن عمر وعبد الله بن أبي حبيب[3]. ويبدو أن التفاف الأتباع حوله جعلته يوسع من آفاقه فادعى المهدوية وسمى نفسه بالإمام[4] لكن هل يمكن القول أن ابن قمي تتبع فصول وخطوات حركة محمد ابن تومرت فتأثر به وادعى المهدوية؟[5].

بعد مقدمات الدعوة واستقطاب الأتباع والأنصار بدأ ابن قمي في مرحلة جديدة من مشروعه السياسي إن صح التعبير، حيث حاول السيطرة على حصن منتقوط سنة 538هـ/1143م بقيادة أحد أتباعه، غير أنه فشل وقتل هذا الأخير فهرب ابن قمي إلى شذونة عند قوم يسمون بيتي الشمة[6]. ومع ذلك واصل هجومه على المرابطين مدركا أن الفرصة مواتية ليحرز تقدما عليهم، فمعظم الجيش المرابطي متمركز في المغرب الأوسط لمواجهة الموحدين[7].

وتعتبر سنة 539هـ/1144م البداية العلنية لدعوة ابن قمي الذي اعتمد على مجموعة من أخلص رجاله منهم أبو بكر محمد بن يحيى الشلطيني المعروف باين القابلة الذي كان يلقبه بالمصطفى لاعتماده عليه في معظم أموره[8] وقد كان هذا على قدرات عالية فـ"كان فريد دهره صرامة ودهاء وشجاعة وبلاغة وفضائله مذكورة"[9] وعليه فقد كان له دور كبير في إقناع الناس بالدعوة بفضل

---

[1] ابن الخطيب، المصدر السابق، د.س، ص225.

[2] ابن الأبار، المصدرالسابق، ص197.

[3] ابن الخطيب، المصدر السابق، ص226.

[4] ابن الأبار، المصدر السابق، ص197.

[5] مصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص71.

[6] ابن الخطيب، نفسه، ص226.

[7] مصمت عبد اللطيف دندش، نفسه، صص 71-72.

[8] إبن الأبار، نفسه، ص198.

[9] ابن الخطيب، نفسه ، ص226.

براعته في الكلام[1]. فقد ذكر عنه ابن الخطيب أن "فصاحته مذكورة"[2] وتمكن من اقتحام حصن ميرتلة بقيادة ابن القابلة في سفر 539ه/1144م بسبعين رجلا[3].

وقد حاول المرابطون استعادته ولم يتمكنوا من ذلك فخربوا ضواحي مرتلة وهو ماجلب سخط سكانها فانضموا لابن قمي[4]. ومهد ابن القابلة الحصن لسيده فالحق بهم في ربيع الأول من نفس السنة وبذلك أصبح له مكان يتحصن به وهو ماجعله يدعي الإمامة وكتب رسائل يدعوا فيها للثورة على المرابطين ولقي استجابة كبيرة خاصة من أهل يابرة بقيادة أبي محمد سيدراي بن وزير[5] وأهل شلب[6]. ولجأ لعنصر المال الذي ساعده في استقطاب الأتباع[7] فكان يمنح الأموال "من غير عمل ولا خراج"[8] كما كان يزعم أنه إذا "أعطى يحثوا بيده من غير عدد"[9] وكان أصحابه ينثون الشائعات في أوساط العامة مدعين أن "المال يتكون عنده إذا فرغ"[10]. ويبدو أن اعتماده على المال ينبع من محاولته للترويج بين سكان الأندلس لطمأنتهم أنه ينحو في سبيل تحقيق

---

[1] قال عنه ابن سعيد "ذو المزح اللطيف والتلوّن الظريف وسالك مهيع ابن العريف، ومُلبس سوقة المعاني حلل اللفظ الشريف، كان حين يهدل غصون أدابه وترفل أيام شبابه في ذيول آرابه، يندل مجلسه بقطر الأدب الغض ويفري الفري لسانه وميناه لايبرح مفرزها الأرض.ابن سعيد،المغرب في حلى المغرب،ج1، تحقيق وتعليق شوقي ضيف،دار المعارف،القاهرة،ط4،1933،ص352.

[2] ابن الخطيب،نفسه،ص226.

[3] ابن الأبار،نفسه،ص198.

[4] ابن الخطيب،نفسه،ص227.

[5] ابن الأبار،المصدر السابق،ص203.

[6] نفسه،صص 198-199.

[7] عصمت عبد اللطيف دندش،المرجع السابق،ص70.

[8] ابن الخطيب،المصدر السابق،ص227.

[9] نفسه،ص227.

[10] نفسه،ص227.

العدالة الاجتماعية من خلال تقسيم عادل للثروة خصوصا أن المرابطين فشلوا في تحقيق ذلك[1].

كما استولى أتباعه على حصن مرجيق وهو من أعمال شلب وقتلوا المرابطين الذين كانوا فيه وانتشر الخبر إلى باجة مما أدى بالمرابطين إلى طلب الأمان من المريدين على أن يلحقوا بإشبيلية ودخلها ابن المنذر ثم ارتحل مع أبو محمد بن وزير إلى ابن قمي بمرتلة وقدما له فروض الطاعة. وعين ابن وزير على باجة وأحوازها وابن المنذر على شلب وأحوازها[2] وواصل هذا الأخير تحركاته ودخل ولبلة بعد قتالها بمساعدة يوسف بن أحمد البطروجي، ثم تحرك نحو اشبيلية بعدما وصلته أخبار من جواسيسه أنها من دون حماية فسار إليها مع جموعه وتمكن من السيطرة على حصن القصر وطلياطلة وهي من أعمال اشبيلية ثم تقدم إلى حصن الزاهر وسيطر عليه[3]. غير أن فرقة من الفرق العسكرية لأبي زكريا يحيى بن غانية باغت طائفة من حشوده بناحية أطربانة من نواحي إشبيلية الذي خرج بجيشه لاعتراضهم بعدما وصلته أخبار بتحركاتهم صوب لبلة وإشبيلية، فتمكن من الوصول وابن المنذر يخرب أحواز إشبيلية فهزمه وهرب ابن المنذر إلى شلب وترك البطروجي يدافع عن لبلة، فتحرك إليه يحيى بن غانية وحاصره ثلاث أشهر لاسترجاعها غير أنه عاد إلى قرطبة بعدما وصلته أخبار بقيام القاضي ابن حمدين بقرطبة[4].

تلقى ابن المنذر وابن القابلة أمرا من ابن قمي بالتحرك إلى قرطبة طمعا في السيطرة عليها وكتب إلى أهلها يرغّبهم في الدخول تحت طاعته[5]. غير أنهما فشلا في مهمتهما ذلك أن أهل قرطبة ملّكوا عليهم أحمد بن عبد الملك بن هود سيف الدولة[6].

---

[1] بن خيرة رقية،الأقات الإجتماعية في الأندلس مابين القرنين الخامس والسادس الهجريين(ق11-12م)،أطروحة دكتوراه مرقونة،جامعة معسكر،2016-2017،ص329.

[2] ابن الأبار،نفسه،ص203.

[3] نفسه،ص204.

[4] نفسه،ص204.

[5] ابن الأبار،المصدر السابق،ص206.

[6] نفسه،ص206.

مقتل ابن قمي:

لم تظل حركة ابن قمي بنفس التماسك الذي كانت عليه حيث دبّ الانشقاق في صفوف أتباعه وكان أولهم سيدراي بن وزير الذي استدعاه بعد حركة ابن المنذر وابن القابلة إلى قرطبة، غير أنه رفض الامتثال لأمره والحضور "لما كان من قبضه عليه بقصبة ميرتلة وخلعه ثم صرفه إلى حاله"[1]. فابن قمي كان قد دخل في مناوشة معه لم تفصل لنا المصادر في سببها وعلى إثرها قبض عليه ثم أطلق سراحه، وانضم ابن وزير وأخوه إلى ابن حمدين القاضي الثائر بقرطبة[2].

لم يستمتع ابن قمي هذا الانشقاق الذي كان يدرك جيدا أنه سيشكل خطرا عليه فأرسل له ابن المنذر لمواجهته غير أنه انهزم أمامه، ويبدو أن انهزامه جعله يغير الكثير من حساباته حيث أرسل إلى الموحدين سنة 540هـ"متبرئا من دعاويه وتائبا مما أسلفه من مساويه"[3] وقد استقبله الموحدون إلى أن عاد إلى الأندلس سنة 541هـ مع الجيش الذي خصصه عبد المؤمن بن علي للسيطرة على جزيرتي طريف والخضراء[4].

وقد أدرك عبد المؤمن بن علي أن قيام ابن قمي ماهو إلا سعي للسلطة فعينه واليا على شلب بعد سيطرته عليها[5]، غير أن ابن قمي كانت أطماعه أكبر من ذلك فخلع دعوة الموحدين و"صرّح بالخلاف"[6] مستغلا قيام ثورة الماسي ببلاد السوس[7] ظنا منه أن الموحدين لن يصمدوا أمامه فانضم لألفونسو انريكي

---

[1] نفسه،ص207.

[2] ابن الخطيب،المصدر السابق،ص227.

[3] ابن الأبار،نفسه،ص199.

[4] نفسه،ص199.

[5] نفسه،ص200.

[6] نفسه،ص200.

[7] ابن عذارى المراكشي،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1985،ص30.

صاحب قلنبرية "فأظهر إجابته إلى مراده وبعث إليه بفرس وسلاح"[1]. غير أن أهل شلب وقفوا في وجهه وقتلوه في قصر الشراجب سنة 546هـ[2]

كتاب خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين،

دوافع التأليف:

ألف ابن قمي كتابه لأحد المريدين عن سؤال راسله به حول علم المكاشفة، حيث يقول في مقدمة الكتاب بعد حمد لله والبسملة مصرحا بذلك في أسلوب لغوي يعج بالرموز والدلالات "أما بعد،قدس الله أرواحكم وفسح مراحكم، فإنه سأل سائلكم أن أبعث له من الصحف الخبرية واللمع الأفقية مايمتع بالجنى الإيماني ويفتح بابا إلى الحمى السرياني ليكون هنالك مسارح حيوانكم ومضارب نخلكم فتدرّ حلوب شياتكم وتكثر لبون رعاتكم ويعسل مناحل جبالكم وعرصاتكم وتلذّ مشربكم وتتغذى أرواحكم وقلوبكم"[3].

على أنه طلب من المريد أن لايطلعه على من هب ودب إلا من ضرب من العلم بسهم وافر "وابتداء العهد فهو عليكم من أن تكون عندكم بأمانة الله عن عين تغمزها ونفس تلمزها، وأن تصونوا مكانها عن صاحب دنيا يكتسبها أو حامل بدعة وتابع هوى يحملها،أو تارك سنة أو مفارق إجماع أمة ينظر فيها، بل لاتمنحوها إلا لمن قدر العلم قدره وأعطى النظر حقه، وروى الفقه بجميع حدوده القاطعة، وسننه الظاهرة والباطنة قسطا، وكان على نور من ربه وبينة من أمره"[4] ويؤكد على نفس الأمر في خاتمة الكتاب وكأنه كان يقصد بكلامه المرابطين المعارضين للتصوف الفلسفي الإشراقي "ثم حرّمت على جميع من يقرؤه من الإخوان أن يبذله لنفس شريرة أو معاندة، أو يطلعها عليه أو يضعه في غير موضعه، وجعلت الله خصمه"[5].

عنوان الكتاب:

---

[1] ابن الأبار،المصدر السابق،ص200.

[2] نفسه،ص200.

[3] أحمد بن قمي،المصدر السابق،صص 201-202.

[4] نفسه،ص211.

[5] نفسه ،ص412.

استلهم ابن قمي عنوان كتابه من قصة موسى عليه السلام بالواد المقدس "إني أنا ربّك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى"[1] حيث أضفى عليها تفسيره الشخصي بقوله "إن موسى بن عمران عليه السلام لما نودي أن اخلع نعليك إنك بالواد المقدس وسمع كلام الأعز الأقدس، خلع عنه النعلين ورفع وسواس الكيف والأين، ولم يزل يخلع ويخلع حتى خلع حجاب الغان والرين وتدرع قميص وقار الهين واللين"[2]. فخلع النعلين هو رمز للتخلي عن الدنيا والإقبال على الله "فمن كان ذا عينين فيتبين المراد من خلع النعلين، فليس إلا أن يخلع من نعلي دنياه ويتجرد من ثوبي شهوته وهواه وأن يتعرض تعرض الفقير المحق لنفحات مولاه"[3]

مصادره:

اعتمد ابن قمي في خلع النعلين اعتمادا كليا على الكتاب والسنة، ذلك أن من صميم رؤيته الصوفية الإشراقية انتهاجه قراءة شخصية للآيات القرآنية وتفسيرها وفق رؤيته الخاصة مدعما إياها بالأحاديث النبوية:

نوع المصدر	عدده
الآيات القرآنية	89 آية
الأحاديث النبوية	97 حديث

موضوعاته: قسم ابن قمي كتابه إلى أربع موضوعات وهي كالتالي: الملكوتيات-الفردوسيات-المحمديات-الرحمانيات.

أفكار ابن قمي في خلع النعلين:

تحدث ابن قمي في كتابه عن العديد من الموضوعات والأفكار من منظوره الشخصي،نذكر منها تفصيله في موضوع صلصلة الجرس أي نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، حيث ابتدأ هذا الفصل بذكر الآيات والأحاديث ذات الصلة بموضوعه، وبين أن الوحي المنزل على رسول الله صلى الله عليه

[1] سورة طه،الآية 12.

[2] أحمد بن قمي،المصدر السابق،ص208.

[3] نفسه ،ص212.

وسلم كان "حبة البادر ونواة الزارع وفلق الإصباح وقبس النور الذي به اتّقد المصباح"[1]. كما ذكر أن الحقائق الإلهية بمثابة الغمامة "من وطئ بساطها استوى ومن ركب براقها بلغ إلى سدرة المنتهى"[2].

كما تحدث عن البرزخ معتبرا إياه مرحلة انتقالية بين الدنيا والآخرة "واعلم أن الأرض والسماء حق وحقيقة والجو وصل بينهما، وأن الخلق والأمر كل واحد منهما حق وحقيقة، والبرزخ الجوي وصل بينهما وأن باطن هذا الوصل هو البرزخ بين الدارين والأقرب من الحقيقتين"[3].

ويرتب هذا البرزخ إلى مراتب مختلفة "وأنشأ مما خلق من الملك الحقيقة البرزخية وهي التي تنفهق على الحقيقة العلوية من نور الحجب ونعيم القرب فيتجدد عليها البساط العماني والنور العلمي والحضور الموقر الأدنى، فيصعد عنها الكلم الطيب والعمل الصالح على معارج أنوار من صور الأعمال إلى يدي حضرة الوقار والجلال ومشرق أنوار القبول والإقبال بما يشبعها من البرزخية فوقها من نور حياة وروح طيب وسناء، فتطوف بالبيت المعمور وتلبي بحجة وتزور، وتقوم المقام الأحمد بوقفة الرضوان، وتقبل جهات اليدين من يمين الإحسان...ثم تنصرف إلى العلوية وعليها من شعار القبول وأنوار يمين التقبل رداء حسن وجمال ونور قرب واتصال...ثم تنفهق العلوية عن البرزخية بروح تلك الحياة وسناء برق السبحات فيتجلى نور البرزخية إلى الأرضية "[4].

تناول ابن قمي في كتابه أيضا فكرة العلاقة بين الله والعالم، متميزا عن سابقيه من تناولوا هذا الموضوع بتناوله لها من منظور دائري المبني وفق منظور الدورة الكونية الكبرى

ميز ابن قمي في موضوع الوجود الإلهي بين نوعين متمايزين من الوجود، سمّى أحدهما حضرة الذات الإلهية المطلقة وسمى الثاني حضرة الأسماء الإلهية وقد سماها الأحدية والأيمن، مفترضا نوعا من التقابل فإذا كان الأول أيمن فالثاني

---

[1] نفسه ،ص215.

[2] نفسه ،ص218.

[3] أحمد بن قمي،المصدر السابق،ص219.

[4] نفسه ،ص219.

أي حضـــــــــــرة الأســـــــــــماء الإلهيـــــــــــــة أيســـــــــــــر على أن هـذا الوجـود ميزه بـين نـوعين مـن الوجـود أحـدهما مطلـق والآخـر مقيـد ويـرى ابـن قمـي العلاقـة بـين الله والعـالم كمظهـر مـن مظـاهر التجلي فـالموجودات ماهي إلا تجلي لأسماء الذات الإلهية وصفاتها[1].

تصور ابن قمي الموجودات في نمط دائري مقسما إياها إلى ستة مراتب:

الوجود الأول:

سـماها فلـك الحيـاة والعـرش المحـيط، حيـث يقـول "فمـن تنزيـل التفصـيل أن الموجـود الأول الـذي هـو فلـك الحيـاة والعـرش المحـيط، لـيس عنـه فصـل ظـاهري كمـا تقـرر، وإنمـا هي حجـب إرادات هي تفصـل الموجـود وتشـد العـرى والإمسـاكات وتقـيم حيـاة النعـيم في الأرض والسـماوات كـذا مـن أعلـى عليـين إلـى أسـفل سافلين"[2].

الوجود الثاني:

وهـو فلـك الرحمـة والعـرش الكـريم، ويقـول عنهـا "خلـق الله مـن نـور ظـاهره الـذي هـو نـور الكرمـي العزيـز روح القـدس وهـو عـالم المقـام الرضـواني والمسـتوى الرحماني وإليه ينتهي الإحساس البشري والإدراك النبوي"[3].

الوجود الثالث:

وهـو الكرمـي العزيـز والعـرش العظـيم الـذي "خلـق الله مـن ظـاهره الـذي هـو نـور العـرش المجيـد القلـم الأعلى واللـوح المحفـوظ، وهـو عـالم التنفيـذ والتقـدير ومـلأ التـدوين والتسـطير، وإليـه تنتهـي ملاحظـة العـارفين ومكاشـفة النبيـين والمرسلين"[4].

الوجود الرابع:

وهـو فلـك العـرش المجيـد الـذي "خلـق الله مـن ظـاهره الـذي هـو نـور السـماء جبريـل الـروح الأمـين، وهـو العـالم الملكي والسـر الروحـاني عنـه تتنـزل أسـرار الغيـوب

---

[1] نفسه ،ص131.

[2] أحمد بن قمي،المصدر السابق،ص249.

[3] نفسه ،ص249.

[4] نفسه ،ص219.

والنبأ، وهو عالم السماوات العلى والملأ الأعلى، وهو الخصم المقرب المرتضى وإليه ينتهي الكشف الملكوتي بخواص الموقنين ونجوم النبيئين"[1].

الوجود الخامس:

وهو فلك السماء "خلق الله من ظاهره الذي هو نور الأرض آدم عليه السلام، وهو العالم الإنساني والسر الرباني"[2].

الوجود السادس:

وهو فلك الأرض "خلق الله من ظاهره الجماد والحيوانات والحشرات، وهو عالم التسخير والإذلال وجنس الإبتذال"[3].

مصطلحاته:

تميز ابن قسي بأسلوب فلسفي معقد في معالجة وطرح أفكار كتابه، فهو لايقدم الفكرة في أسلوب سلس يسهل على المطلع فهمها، بل يشحنه بالمصطلحات المعقدة، وفيما يلي جدول بأهم هذه المصطلحات[4]:

الأبد	ألف التنزيه	أهل الاختصاصات	البواطن المحلولة
الأحد	ألف النون	الأيمن	التجلي
الإحاطيات الأوليات	ألف الوصل	الأيسر	التدلي
الأزل	الأمر	الأين	التداني
الاستواء الثقلي	الأمهات السفلية	باء القدم التزيه	الترقي
الأعيان	الأنس	الأبدال	التضايف
الأفق الأعلى	أهل الكتاب	البرزخ	التلقي
الأفق المبين	أهل الأحزاب	الباطن	الجرس
الجسم	الحجاب الإحاطي	الحجاب الأدمي	الحضرة

[1] نفسه ،ص250.

[2] نفسه ،ص250.

[3] نفسه ،ص250.

[4] استقينا هذه المصطلحات وتعريفاتها من الملحق الذي وضعه محقق الكتاب الدكتور محمد الأمراني الذي بذل جهدا جبارا في تحقيقه وهو جهد يستحق التنويه.

			الأقدسية
الحجاب	الحجاب الأقدس	الحد	الحق
اللحقيقة	الحكمة الصمدية	الساق	السعادة الكبرى
الحقيقة العلوية	الخط الهندسي	سر التوالج وحكمة التداخل	السمسمة
الحقيقة المحمدية	الروحانية المطلقة	سر السر	الصورة الإحاطية
حكمة التداخل	الزمردة	السرياني	الصورة الدحيية

الخاتمة، تثمينا لما ذكرنا سابقا نؤكد على أن كتاب خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين يكتسي أهمية بالغة في التعريف بالفكر الصوفي الفلسفي بالأندلس خلال العهد المرابطي، فهو إذن وثيقة هامة خاصة أن المطلع على الإنتاج الفكري الصوفي الفلسفي يجد ندرة في المصنفات المتوفرة، ذلك أن أغلبها مفقود ككتاب الزهد لـ يمن بن رزق التطيلي وتوحيد الموقنين لابن مسرة وكتاب عين اليقين لابن برجان، فكتاب خلع النعلين يمثل صورة صادقة للفكر الصوفي الأندلسي خلال القرن السادس الهجري فهو يطلعنا على مجمل الأفكار الصوفية ذات الطابع الفلسفي والممتزجة بعدة توجهات غزالية وشيعية مضفيا عليها لمسته التحليلية.